أصدقاء الفيلهارمونية جالوا في تاريخ صيدا ومبانيها التراثية باخ وهاندل وموزار في متحف عودة الشاهد على المدينة القديمة

مي منسى

لا شك أن للمثقفين القلائل في بلدي، الغيارى على إسم لبنان تاريخاً وتراثاً وهوية، نيّات بنّاءة تزرع لتجني ثماراً جيّدة وإن جاءت محاصيلها المفيدة، ضئيلة جداً بالنسبة إلى الأضرار الجسيمة التي تقترف بحق هذا الوطن من غير محاسبة ودينونة. من هذه الثمار، على شحّتها، التي لا بد أن تروي قلب بلد عطشان، ولدت جمعية "أصدقاء الأوركسترا الفيلهارمونية الوطنية"، فكرة اقترحها المهندس ألكسي مكرزل عام 2015، برنامجاً ثقافياً يقرن الموسيقى الكلاسيكية بكامل عصورها، بتاريخ لبنان وتراثه، ومن أهدافها دعم مشاريع الأوركسترا بمساعدة أعضائها الملتزمين بها، في سبيل توهّجها في لبنان وعلى المساحة الدولية.

رحلتنا الأولى مع أعضاء جمعية أصدقاء الأوركسترا الفيلهارمونية، استهدفت سياحة في معالم مدينة صيدا القديمة تاريخاً وتراثا. دليلنا باللغة الفرنسية كان ألكسي مكرزل الحامل في هذه الرحلة تاريخ صيدا في ذاكرته، والتاريخ في ثقافة هذا المهندس، مرصّع في حجر العقود والقبب العالية، فيما الشرح باللغة العربية، كان له دليله الصيداوي في كل موقع أثري وتاريخي، نتوقّف فيه. ففيما كنا نجوب تحت قناطر الخانات الشعبية وأزقتها الضيّقة، شعرنا، كم للتاريخ، حين ننسى ما درسناه في الكتب، علاقة عضوية، بإنسان اليوم. من مسام الحجر فاحت روائح، وبصمات سرمدية، ما دام الإنسان هنا، بعاداته وتقاليده على تواصل دائم بأزمنة مدينة، شهدت تاريخاً حافلاً، يمتد من العصر الشالكوليتي، الفترة الانتقالية بين العصرين الحجري والبرونزي، إلى حقبات تاريخية ساهمت في تكوين هويتها، صيدا الفينيقية، صيدا العربية وساجيت الصليبية، مدينة واحدة عاشت عصرها الذهبي في عهد الأمير فخر الدين. أما الآن فلنسمع ما يرويه التاريخ، من خان الفرنج وخان السرايا إلى أماكن العبادة من الجامع العمري الكبير العائد إلى الأزمنة الغابرة، حيث كان معبداً لعبّاد الشمس، إلى كنيسة الروم الأرثوذكس والكنيس، وللحجر المرصوف عقوداً في كل مكان، صوت يروي أصول البنيان في تلك الأزمنة، فتطل علينا هوية صيدا التي رغم الزلزال الذي زعزع بنيانها وهدّمه، ظلّت وفيّة لتراثها تعيد ترميمه ذخراً للذاكرة.

السياحة شقّت لنا السير على خطى الزمن، فقصر دبانة العائد بنيانه إلى القرن الثامن عشر، حافظ بفضل سلالة عائلة دبّانة على هندسته الدمشقية المزخرفة بالفنون العثمانية، أهو متحف اليوم؟ الجلوس هنيهات في رحابه للاستراحة، يحرّك هواء الوقت ويمنع عنه الجمود. فالعائلات الصيداوية الأصيلة تعيش في منازل أثرية ترويها بحضورها وتسهر على ماضيها. هذه الزيارات التي أخذتنا إلى أماكن تراثية متسلسلة أزمنتها في التاريخ، كان ختامها مبرمجاً، في متحف الصابون لمؤسسة عودة. هنا حطّ الرباعي الوتري "أرتون"، غصناً من شجرة الأوركسترا الوطنية، ليلتئم بجوهر مشروع "أصدقاء الأوركسترا الفيلهارمونية".

(رامي الخال)

فوح الصابون المنبثق من الطابق الأرضي للدار التراثية، يروي مغامرة حلوة قامت بها عائلة عودة بتحويل المصبنة العائلية القديمة إلى متحف للصابون الحرفي، ومعها إعادة تأهيل واجهات المباني في أزقة حي عودة وإنشاء مؤسّسة عودة.

في الطابق العلوي كان للرباعي الوتري دور في إسماعنا مع موسيقى موزار وهاندل، قلب هذا البيت النابض، لما في نيات العائلة من صون وإعادة تقدير للتراث المعماري والأثري والاجتماعي-الثقافي لمدينة صيدا.

بعد أن رافقنا رئيس جمعية أصدقاء الأوركسترا الفيلهارمونية ألكسي مكرزل في محطات زمنية تاريخية مهمة، كان له مع بداية الأمسية الموسيقية الختامية لسياحتنا، ما يقوله عن هذا الحدث: "هذا الحدث الثقافي، الموسيقى، هو الأول من برنامج سوف نحييه مرتين في السنة في المواقع التراثية، وما جعله ممكناً هذا اليوم، ضيافة مؤسسة عودة الكريمة ونخص بالذكر رئيستها كريستيان عودة. التراث والموسيقى لا يفترقان، فالرنانة الموسيقية بانتشارها في المدى ترسل إلينا صورة شاعرية عن المكان...".

الرباعي الوتري اختار من عهود الموسيقى، الباروك والكلاسيكية والمعاصرة ما يطيّب السمع. القوس على الوتر دخل في صميم إحياء الذاكرة، لم نكتف في استماعنا إلى كل مقطوعة، بل كانت تلقائيا تجد مكانها في كل موقع أقمنا في تاريخه.

nay.menassa@annahar.com.lb